العظيم

كلمة الأستاذ ربحي التي ألقاها يوم الاحتفال بالمولد في المدرسة الشرقية .

أيها السادة :

هذا العالم يزخر بما لا يعد ولا يحصى من الرجال ، ولكن العظماء فيه قليلون ، بحيث يمكن عدهم عداً ، ذلك لأن العظمة معين خلود ، لا يصله كل من يطمع في وروده ، لأن طريقه شائكة شاقة ، وعرة المسالك ، جمة المهالك ، منافذها مغلقة إلا على من أوتي حزما وعزما وقدرة تامة على مجاهدة النفس ، ومجالدة نزعاتها وأهوائها ، ومن اتصف بأفكار الذات ، وصد رغباتها ، وكان من التضحية والتفاني ذا حظ عظيم ، فمن استطاع ذلك ، ورد المورد الصافي ، فاستقى حتى ارتوى ، فكان عظيما وكان خالداً .

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

فليس العظيم إذاً بماله ومنصبه ، ولا بقوته وسطوته ، لأن العظمة التي تعتمد على أسباب هي عرضة للزوال ، لا محالة زائلة بزوال أسبابها .

ولكن العظيم كل العظيم من يعيش ما يعيش عظيما ويقضي عظيما ، عظمة : تكر السنون وتتعاقب القرون ، وهي ماثلة . خالدة ، تكاد لا تشيع جيلا حتى تستقبل آخر ، لتفيض عليه من جلالها عبراً ، وتنثر من آياتها درراً .

وإن العظيم كل العظيم هو ذلك السيد الذي يبيت على الطوى ، ومن وكلت إليه أمورهم يتنعمون بالثروة والغنى وهو الذي تتفتح له أبواب السماء والأرض ، وتتزين له الدنيا بزخرفها ، وتقبل عليه بجمالها لتغريه بالتعلق بها ، فيصد عنها بأنفة واستكبار ويقول : إليك عني أيتها الغاوية ، فلست ممن تصيدين ولا ممن تغرين وتخدعين فما للزوال كنت ولكن للخلود خلقت .

إن العظيم كل العظيم هو ذلك الذي يحنى العالم أمامه الرؤوس وتراه يجلس بين رهطه وجماعته وهو وهم كالحلقة المفرغة لا يدري طرفاها فلا يمتاز عليهم إلا بما ينبعث منه من نور لا يملك منع إشعاعه .

إن العظيم كل العظيم هو ذلك الذي يأتمر بأمره رجال يتسابقون إلى تلقي أوامره ، ويتبارون بتنفيذ ما يأمرهم به فلا يجدون في سبيل ذلك صعباً ولو كان المصير الموت ومع هذا نراه في مقدمتهم في كل ما أمرهم به حيث يبدأ هو بتنفيذه فلا يقول ما لا يفعل بل يفعل ما يقول .

إن العظيم كل العظيم هو ذلك الذي يشقى لشقاء جماعته ويستريح براحتهم ، ويسعده صلاحهم ويحزنه فسادهم ، فلا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، حتى يقوم أودهم ، ولا يبالي بما يلقى في سبيل ذلك من عنت :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه
وصمم تصميم السريحي ذي الأثر

يسير في طريقه جاهداً ، فلا تعده عقبات ، ولا تثنيه صعاب ، ولا يجد اليأس إلى قلبه سبيلا حتى يرى ما اراد جميلا .

إن العظيم كل العظيم الذي رأى من مواهب قومه ما يبشر بأنهم لم يكونوا لما هم عليه : من فرقة وتخالف وتحاسد وتباغض ، فهداهم إلى ما في نفوسهم من نخوة وشهامة ، وبطولة ورجولة ، وذكاء ومضاء واستعداد عظيم لحمل رسالة علم وصلاح وعمران وفلاح ، إلى العالم : العالم الذي كان يتخبط في مهاوي الشقاء ومطارح الفناء ، تنزل به الآلام والأرزاء ، فيقفون أمام هدايته حائرين بين مصدقين ومكذبين ، وما هي إلا عشية وضحاها ، حتى كانوا يسيرون في الطريق التي عبدها لهم ، فاذا راياتهم خفاقة على أسوار الصين العتيدة ، وإذا هم يهددون أمواج المحيط الأطلسي ، وإذا الأمم التي طغت عليهم وبغت ، إذا بها ترتد عنهم خائبة ، ثم تستظل راياتهم ، ثم تهتدي بهديهم ، فتذوق سعادتهم ، وتنعم بعدلهم وأمنهم وتتحلى بعلمهم ، وتتهذب بثقافة قرآنهم .

إن العظيم كل العظيم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم :

أشهد اللهم أن المصطفى عم الأكوان نورا وهدى
أنزل التوحيد قلباً شئته صل يارب عليه سرمداً

أشهد اللهم أن محمداً عظيم ، وأن رجال محمد عظام « والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين » .

أيها الإخوان :

إن محمداً ولد عظيما وعاش عظيما ومات عظيما . وإن عظمته لماثلة خالدة تتجلى علينا من عليائها ، فتنير لنا السبل في الليالي الحالكات العابسات ، فتبدد الظلمات وترد عنا